مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255
المجلد7،العدد 2 – جوان 2020

الحواضر العلمية ودورها في الحفاظ على المرجعية الدينية بمنطقة الساحل الإفريقي

The Role of The Scientific Cities in Maintaining The Religious References in The African Sahel Region

د. سالم بوتدارة، جامعة أدرار،الجزائر
salem2900@gmail.com

تاريخ التسليم:(2020/03/10)، تاريخ التقييم:(2020/04/01)،تاريخ القبول:(2020/04/10)

ملخص :

مثّلت بلاد الساحل الإفريقي في الفترة الحديثة منطقة تقاطع للحضارات والثقافات واللغات، مما أهّلها لتكون جسر تواصل ربَط بين الحضارتين العربية والإفريقية، ويرجع الفضل في ذلك إلى الحواضر العلمية المنتشرة في ربوع المنطقة، والتي ساهمت في الحفاظ على هويتها وإعطائها مكانة معتبرة بين دول الجوار، عن طريق إقامة علاقات ودّية ساهمت فيها عوامل متعددة جعلت من بلاد الساحل في تلك الفترة موقعا استراتيجيا يجسد الوصل بين العديد من الشعوب والثقافات، لكن الإستعمار الذي ركّز على محاربة الحواضر العلمية الراعية للمرجعية الدينية، جعل المنطقة تدفع ثمن موقعها الذي تحول من جسر رابط بين الحضارات، إلى موقع تتصارع فيه الإيديولوجيات والإثنيات.

وتهدف هذه الدراسة إلى رصد أهم تلك الحواضر ودورها في ترسيخ المرجعية الدينية بالمنطقة، وكيف ساهمت في الحفاظ عليها من التطرف والشوائب؟، وكيف استطاعت أن تقاوم بها التحديات التي فرضها عليها الإستعمار ومخلّفاته، وكذا التحديات الراهنة.

الكلمات المفتاحية: إفريقيا، منطقة الساحل، الحواضر العلمية،المرجعية الدينية.

Abstract :

In the Modern era, the African Sahel region represented a crossroad of cities, cultures and languages. It was also a bridge of communication between the Arabian and the African civilizations thanks to the scientific cities which were widespread in the region. These cities contributed in the preservation of the identity and the position of the African Sahel among the neighbouring cities through the friendly relationships between them. At that period, various factors made the Sahel region a strategic location that embodies the connection between many people and cities. However, the colonialization fought these cities, which were the center of the religious references. This resulted in struggles between ideologies and ethnicities. This study aims at demonstrating the importance of these scientific cities and their role in preserving the religious references in the region, and how they resisted extremism and the challenges imposed by the colonialization.

Keywords: Africa, Sahel region, The scientific cities, The religious references.

* المؤلف المراسل: د. سالم بوتدارة ،الإيميل: salem2900@gmail.com

مقدمة:

تربّعت منطقة الساحل الإفريقي على موقع جغرافي هام، شكل همزة وصْل بين بلدان شمال إفريقيا وجنوبها، مما ساعد الممالك الإسلامية التي قامت بمنطقة الساحل على تمتين أواصر التواصل مع حواضر البلدان المجاورة لها الواقعة في شمال إفريقيا، ولقد كان العامل الثقافي الديني الذي تجسده الوحدة المذهبية التي ساهمت في انتشار الطرق الصوفية وتنقل العلماء، من أهم العوامل التي مهدت السُّبل لبناء جسور ذلك التواصل، وترسيخ مرجعية دينية ذات أصول ثابتة، وتعتبر الحواضر العلمية التي قامت بمنطقة الساحل الحاضنة الأساسية لهذه العوامل كلها، والراعية لها رغم التحديات التي واجهتها جرّاء السياسات الإستعمارية، التي استهدفت هوية شعوب المنطقة فتحولت من منطقة تعايش بين مختلف الشعوب إلى منطقة صرعات للثقافات والأجناس، أضرّت بأهلها وأقلقت العالم.

وسترصد هذه الدراسة – عن طريق المنهج التاريخي وأدواته– إجابة مقتضبة عن إشكالية محورية تتعلق أساسا بماهية بلاد الساحل الإفريقي وحدودها الجغرافية والتاريخية، وما احتضنته من حواضر علمية خلال الفترة الحديثة، والدور الذي قامت به بهدف ترسيخ المرجعية الدينية لأهالي المنطقة وسبل الحفاظ عليها من الغلو ومن مخططات الإستعمار الرامية لطمسها.

1. التعريف بمنطقة الساحل الإفريقي:

يشكل الساحل الإفريقي المنطقة الفاصلة بين شمال إفريقيا وإفريقيا جنوب الصحراء، فهو يمتد من أقصى الساحل الشرقي للقارة الإفريقية المطل على البحر الأحمر إلى أقصى الساحل الغربي المطل على المحيط الأطلسي وهو عبارة عن شريط طويل يضم بداخله عدة دول منها السودان، تشاد، النيجر، مالي، بوركينا فاسو..،عُرف قديما باسم نجيريتا، ثم أطلق عليه العرب اسم بلاد السودان نسبة إلى شعوب هذه المنطقة وكان إطلاقهم أحيانا على كل إفريقيا، ثم اقتصر هذا المفهوم على منطقة بحيرة تشاد في القرن الثالث الهجري، أما في القرن الرابع الهجري فقد اتسع مدلول هذا المصطلح حيث يذكر المسعودي: "أن بلاد السودان هي المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى من المحيط الهندي، إلى بحر الظلمات"(المسعودي، 1988، ج2، ص 240)، أما ابن حوقل فقد أشار إليها وحددها بقوله: "وأما جنوبي الأرض من بلاد السودان فإن بلادهم في أقصى المغرب على البحر المحيط بلد ملتف ... غير أن له حدا ينتهي إلى برية بينه وبين أرض المغرب، وحد له إلى بريه وبين أرض مصر على ظهر الواحات.." (ابن حوقل، 1979، ص24).

والواضح من كتابات الجغرافيين أن المقصود بها عندهم ما أشرنا إليه آنفا أنها المنطقة الإفريقية التي تتوسط الصحراء وغابات الإستواء، ونظرا لطول شريطها فقد قسموها إلى ثلاثة أجزاء، عرف الجزء الشرقي منها بالسودان الشرقي، وهو يشمل حاليا دولة السودان وبلاد النوبة بشكل عام، أما السودان

الأوسط فهو يضم المناطق المحيطة ببحيرة تشاد، أما السودان الغربي فهو يشمل منطقة حوض السنغال وغامبيا وبوركينا فاسو والنيجر الأوسط.

لكن ما تعنيه بلاد الساحل الحالية كمدلول جيوسياسي يختلف عن ذلك المعنى الذي ساد في القدم أو في الفترة الوسيطة والحديثة، فبلاد الساحل في وقتنا الراهن تشمل منطقتي السودان الغربي والأوسط، وذلك على إثر اقتصار اسم السودان على جمهورية السودان، فبلاد الساحل التي نعنيها بالدراسة هي الشريط المحاذي لمنطقة الصحراء الكبرى والمحصورة بين أعالي نهر السينيغال والنيجر الأوسط.

2. أهم الحواضر العلمية بمنطقة الساحل الإفريقي خلال الفترة الحديثة

عرفت بلاد الساحل الإفريقي بعد انتشار الإسلام فيها اهتمام بالتعاليم الدينية الإسلامية التي شكّلت لهم مرجعية دينية واضحة، ساهم في ترسيخها ثلّة من علماء المنطقة والعلماء الوافدين إليها، بفضل ما أنشأوه من مدارس علمية كالكتاتيب والمساجد والزوايا، فكوّنوا بذلك نخب علمية، وعلموا العامة أصول دينهم وما يرسّخ عقيدتهم ويجمعهم على مرجعية أساسها عقيدة التوحيد والتدين الوسطي السليم، وقد احتضنت هذه المهمة النبيلة حواضر كوّنت العديد من الفقهاء والقضاة واستقطبت آخرين نظرا لازدهار العلوم بها إلى جانب كون العديد منها كان مراكز تجارية هامة، ومن أهم هذه الحواضر نذكر ما يلي:

- **حاضرة تنبكتو:**

لحاضرة تنبكتو مجد علمي بارز بين حواضر الساحل الإفريقي، إذ ساهم موقعها الهام الرابط بين بلاد الساحل الإفريقي والصحراء الكبرى في استقطاب مختلف الشعوب من مصر وفزان وغدامس وورقلة وتوات وغيرها. (السعدي، 1981، ص 21)

بدأ نجم المدينة في الصعود خلال فترة حكم مملكة مالي الإسلامية، خاصة في عهد سلطانها منسى موسى وحجته المشهورة التي اصطحب فيها معه العديد من رجال الثقافة والعلم من الحجاز ومصر وبلاد المغرب، وآلاف المخطوطات والكتب الإسلامية التي قدمها كهدايا للعلماء، فأضحت تنبكتو منارة علمية ودينية يصفها السعدي قائلا": ... ما دنستها عبادة الأوثان، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمان، كانت مأوى للعلماء والعابدين ومألف الزاهدين والأولياء وملتقى الفلك والسيار فجعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم إلى أن صارت مسلكا للسالكين في ذهابهم ورجوعهم" (السعدي،1981، ص21)

واستمر هذا الازدهار العلمي إلى القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي في عهد مملكة سنغاي وملكها محمد أسكيا وابنه داوود اللذان عرفا بحبهما للعلماء وتقريبهم، وتوسعتهم للمساجد وبناء مساجد أخرى كمسجد يحي التادلسي الذي بني تخليدا لاسم هذا العالم الذي كان أحد رموز العلم بها، وجامع سنكري الذي تطورت طبيعة التعليم فيه ووسع إلى جامعة أدخلت فيها مناهج جديدة وعلوم أخرى إلى جانب علوم القران والحديث، فأصبح يدرس فيها التاريخ والمنطق والفلسفة(مولاي،2014، ص136)

بالإضافة إلى ظهور الكتاتيب بعد ما كان التعليم محصورا في المساجد ويشمل جميع الفئات صغارا وكبارا، أصبحت هذه الكتاتيب لتعليم الصغار فقط، وقد ارتفع عددها إلى مئة وخمسون كُتابا لتعليم الصبيان. (عبد اللطيف،2001، ص114)

وقد ساهمت هذه المظاهر العلمية التي اتسمت بها حاضرة تنبكتو في الحفاظ على الهوية الإسلامية ليس للمدينة فقط، بل لبلاد الساحل عامة ومعظم دول الجوار والعالم بفضل ثلّة من علمائها الذين كرسوا حياتهم لتعليم النشء أصول دينه والتأليف في عقيدة أهل السنة والمذهب المالكي والتصوف السني، من أمثال هؤلاء الشيخ أحمد بابا التنبكتي والقاضي محمود كعت وعبد الرحمان السعدي.

- **حاضرة غاو:**

تعتبر هذه المدينة من أهم مدن بلاد الساحل الإفريقي، دخل الإسلام المدينة مبكرا عن طريق القوافل التجارية الرابطة بينها وبين شمال إفريقيا ومصر، لتعرف تطورا وازدهارا مع مرور الوقت خاصة في عهد سلطان مالي منسي موسى الذي بنى فيها مسجدا جامعا سنة 725هـ 1325م، واستمر هذا المسجد في العطاء والإزدهار إلى أن صار جامعة إسلامية يؤمها العلماء والطلاب من كل مكان.

ولعل من أهم العلماء الكبار الذين استقطبتهم غاو، الشيخ محمد ابن عبد الكريم المغيلي الذي جاءها من توات سنة 903هـ 1498م وبقي بها لمدة سنة، عمل على نشر الفكر و التربية الإسلامية بين شعبها. (ميقا، د.ت، ص50)

- **حاضر كانو:**

لا تقلّ حاضرة كانو أهمية عن حواضر الساحل الإفريقي، إذ نشطت مختلف العلوم بها بعد هجرة قبائل الونغاراة الماليين إليها في القرن الرابع عشر الميلادي، وكانت تلك القبائل تضم علماء بارزين ساهموا في تعليم أهالي كانو الفقه والحديث والعلوم القرآن (باري، 2000، ص90)، ولم يقتصر الفضل على قبائل الونغاراة فقد لحق بهم جماعات من قبائل الفلان الذين عملوا كمرشدين ومعلمين للقرآن وباقي فروع الدراسات الإسلامية. (رزق الله، 1998، ص395)

ونتيجة لإهتمام سلاطين كانو بالعلم والعلماء فقد حلّ بالحاضرة عدد معتبر من العلماء البارزين أمثال محمد بن عبد الكريم المغيلي وعبد الرحمان السيوطي وعبد السلام التونسي وأبو بكر المغربي وغيرهم (السعدي، 1981، ص39)، وكلهم كان لهم اهتمام بالغ بالتدريس وبناء المساجد والمعاهد الإسلامية، وقد ساهموا كذلك في تشجيع سلاطين كانو على الاهتمام ببناء المدارس لتعليم القرآن، فقد بنى السلطان أبو بكر كادي ابن رمفا 1573/1565 مدرسة شهيرة لتعليم القرآن تسمى غورون بوغاشي، والتي استمرت في العطاء والتحصيل العلمي حتى بعد وفاة السلطان أبو بكر ليأتي السلطان باو بن محمد

كوكونا 1070هـ 1081هـ 1660م 1670م، بنى مدرسة أخرى عرفت بمدرسة بوغاشي كسكي (رزق الله، 1998، ص399).

ونتيجة لهذا الاهتمام الذي أولته السلطة للعلم والعلماء في كانو فقد أقبل الأهالي على حفظ القرآن والتعرف على أصول دينهم الذي به يحافظون على هويتهم ومرجعيتهم الإسلامية.

- **حاضرة جني:**

جني مدينة بالساحل الإفريقي ذات أهمية علمية بارزة، أهلها – كما يصفهم ابن بطوطة– لهم حماسة بالغة في أداء العبادات وتدريس القرآن (ابن بطوطة،1997، ص421)،

ازدهرت الحياة العلمية والثقافية في مدينة جني في عهد مملكة سنغاي خاصة في أيام حكم الأسقيا محمد وبنيه من بعده، حيث أصبحت مركز إسلاميا و ثقافيا مباركا، فأقبل عليها العلماء من قبائل وبلاد شتى، ذكر السعدي عدد كبير منهم محمد سانو الونكري، والعالم مورمغ كنكن الذي جاءها من بلاد كابر الذي اشتهر بغزارة علمه، توافد عليه عدد كبير من طلبة العلم للإفادة منه، كان نشيطا في أداء رسالته، يخرج من داره في منتصف الليل إلى مقر إلقاء دروسه في المسجد الجامع بجني ويجلس الطلبة حوله يتلقون الدرس حتى إقامة الفجر، ثم يعدون إليه بعد الصلاة ليستمر معهم إلى الزوال، ثم يعود إلى داره لأخذ قسطا من الراحة ليعود إلى حلقة الدرس بعد صلاة الظهر، ويجلس إلى العصر (السعدي،1981، ص16).

حتى يستقيم الأهالي على أمر الشرع وهويتهم الإسلامية فقد كان القضاء بجني لا يحيد عن الشريعة الإسلامية، لذا تقلده مجموعة من الفقهاء نذكر منهم الفقيه العباس بن كب الونكري (رزق الله، 1998، ص375)، والقاضي محمود بن أبي بكر بغيغ والد العالمين محمد بغيغ و احمد بغيغ، واصله ونكري كان له وأولاده دورا كبيرا في تاريخ القضاء والعلم في مدينة جني (الماحي، 1999، ص102).

وقد أسهم هؤلاء العلماء في تعليم الأهالي أمور دينهم وما يقوي مرجعيتهم الإسلامية، فكثرت بجني مدارس ومعاهد تدريس القرآن ومبادئ الدين، وكانت منفصلة عن المساجد، بلغ عددها خمسة عشر مدرسة (بازينة، 2010، ص146).

- **حاضرة أقدز:**

أسسها الطوارق سنة 1168م لتكون ملتقى للقوافل التجارية (بازينة، 2010، ص146)، لكن موقعها الإستراتيجي الرابط بين الصحراء الكبرى وبلاد الساحل الإفريقي جعلها تحظى بزيارة عدد وفير من العلماء المشاهير كمحمد بن عبد الكريم المغيلي ومحمد الفزاني اللذان بنيا بها مسجدان أصبحا في ما بعد من منارتها العلمية التي أكسبتها شهرة علمية جعلت الكثير من العلماء يرحلون إليها للاستزادة في طلب العلم، منهم العاقب بن عبد الله الانصمني المسوفي الذي درس بها على يد الشيخ المغيلي، وكذلك

النجيب بن محمد شمس الدين التكداوي الأنصمي الذي درس بها وأصبح أحد علمائها المتضلعين كانت له مؤلفات منها شرح مختصر خليل في الفقه المالكي (بللو، 1996، ص65).

أما الشيخ جبريل بن عمر الأغدامسي فقد كان له الفضل في إعطاء حركة قوية للنهضة العلمية لهذه الحاضرة استمرت إلى ما بعده، أخذ عنه الشيخ عثمان دان فودي وأخوه الشيخ عبد الله العلم، قام هذا الشيخ بإسهام كبير في الأدب والدعوى الجهادية التي تأثر بها الشيخ عثمان وكان كثير الاستشهاد بمقولته ومؤلفاته خاصة في كتابيه المتن والقصائد ونصائح الأمة المحمدية (مولاي، 2014، ص147).

كل هذه الحركية العلمية كان لها الفضل في دفع ساكنة المنطقة إلى التشبث بمرجعيتهم الإسلامية أمام التيارات التي كانت تجتاح المنطقة من حين لآخر.

- **حاضرة كاتسينا:**

لحاضرة كاتسينا شبه كبير بجارتها ببلاد الهوسا حاضرة كانو، من حيث وصول الإسلام لها عن طريق قبائل الونغارة، وزيارة عدد من العلماء لها وتنشيطهم الحركة التعليمية بها كالشيخ المغيلي وعبد الرحمان السيوطي.

إضافة إلى اهتمام سلاطينها بتشييد المساجد والمعاهد، فقد بنى السلطان محمد كوارو بها مسجدا كبيرا، كما بنى محمد غيغما معهدا لتخريج القضاة والعلوم الشرعية عُرف بمعهد الحنبليين، وكذلك معهد درما، وقد أنشا هذا المعهد شيخ من كاتسينا يسمى أبو بكر كان متخصصا في نشر اللغة العربية وعلوم الدين، كما ظهرت عدة معاهد أخرى أواخر القرن الثاني عشر هجري الثامن عشر ميلادي، لتستمر في العطاء الى القرن الثالث عشر هجري التاسع عشر ميلادي، منها معهد السوق القديم الذي درس فيه الشيخ بلادن محمد بن عثمان بن محمد البكري حوالي 1243هـ 1827م (مولاي،2014، ص145).

وقد ساهمت هذه المعاهد في تكوين الفرد الإفريقي ببلاد الساحل وكل من زارها للتعلم، إضافة إلى تربية النشء على أصول الدين والمعتقد السليم فقد انبرى ثلة من العلماء للإشتغال بهذا المجال السلوكي العقدي والتأليف فيه، لعل أبرزهم محمد الصباغ الذي كانت له مؤلفات في السياسية والتربية والتاريخ منها كتابة "مزجرة" الفتيان الذي ألفه في التربية (بللو، 1996، ص75).

- **حاضرة أروان:**

من الحواضر الغربية بالساحل الإفريقي، يعود الفضل في تأسيسها حسب الراويات الى الشيخ أحمد آغ أدا، الذي كان يبحث عن مكان تتوفر فيه شروط العبادة، وبعد تأسيس المدينة انطلق الشيخ في نشاطه من أجل نشر الإسلام وتعليم أبناء المسلمين، مما جعل من هذه القرية الصغيرة خلال بضع سنوات مركزا تجاريا وعلميا كبيرا، حيث تخرج من مسجدها الذي كان بمثابة الجامعة عدد من العلماء الذين ذاع صيتهم (جعفري،2009، ص248).

ومما ساهم في ازدهار العلم بالمدينة هو كونها محطة للحجاج القادمين من الغرب (الحوض والساحل)، والقادمين من الجنوب (تمبكتو وماسينا) ومنها يتنقلون إلى توات أثناء توجههم إلى الديار المقدسة، مما أعطى علماء المدينة فرصة أثناء وجود هؤلاء الأشخاص لشراء مخطوطاتهم أو نسخها، وجعلها تشتهر بكثرة مكتباتها التي منها مكتبة أهل الحبيب وهي من أقدم المكتبات بالمدينة، مؤسسها الشيخ سيد أحمد بن الصالح ت 1772م، ومكتبة أهل القاضي التي تأسست على يد الشيخ محمد آغ أدا مؤسس مدينة أروان (جعفري،2009، ص248).

ساهمت هذه المكتبات في حفظ تراث المنطقة الذي كان في معظمه مخطوطات في علوم القرآن والفقه واللغة والتراجم والسير، ألّفها أو جلبها علماء الحاضرة أو الوافدين إليها، مساهمين بذلك في حثّ الساكنة على التعرف على مشارب هويتهم وأصول مرجعيتهم.

- **حاضرة ولاتة:**

حاضرة ولاتة من الحواضر الغربية بالساحل الإفريقي، كانت كغيرها من المدن الكبيرة بغرب إفريقيا معبرا للتجارة والتجار بين سجلماسة ومملكة غانة، مما أهلها أن تكون مركزا تجاريا هاما سرعان ما تحوّل إلى قطب علمي بفضل حركية العلماء الذين قدموا إليها من فاس ومراكش وتلمسان وتنبكتو وتوات..، ساهموا في تعليم الأهالي، فتخرج على أيديهم ثلة من أبناء المنطقة الذين صاروا علماء وقضاة أشهرهم الشيخ أند عبد الله بن أحمد بن أند، والشيخ محمد عبد الله وأبوه عمر ماما، الذي انبرى للتدريس والإمامة لأكثر من أربعين سنة، وصاحب المؤلَّف الشهير " فتح الشكور" محمد بن أبي بكر البرتلي الولاتي.

وكان من نشاط هؤلاء العلماء أن أصبحت المساجد مؤسسات تعليمية مفتوحة لكل المتعلمين يتولى الإمام مهمة التدريس بها حسب جدول زمني محدد، يبتدئ بقراءة الحزب الراتب وكتاب صحيحي البخاري و الشفا، ثم يتولى الإمام شرحه أو أحد كبار العلماء لينتقل التعليم في هذه المدينة إلى أكثر تخصص، وأفردت له منازل خاصة مثل منازل العلماء التي اعتبرت بمثابة معاهد ومدارس عليا للطلبة الملازمين للشيوخ، لاسيما من أكملوا تعليمهم وأصبحوا مكلفين بإلقاء الدروس نيابة عن الشيخ (الحمدي، 2012، ص18).

1. **دور الحواضر العلمية في الحفاظ على المرجعية الدينية بمنطقة الساحل الإفريقي**

للحواضر القرآنية دور فعّال في التصدي للتحديات التي تعيشها بلاد الساحل، وذلك من خلال بثّ روح التشبث بالمرجعية الدينية التي ساعدت ساكنة المنطقة في فهم تلك التحديات ومن ثمة خصائصها ومسبباتها وطرق التصدي لها أو التكيف معها، ومن تلك الخصائص الجغرافية والسياسية المتحكمة في التحديات التي تواجهها منطقة بلاد الساحل، والتي جعلت منها محل اهتمام الدوائر السياسية والبحثية في الفترتين الحديثة والمعاصرة، بعد أن كانت منطقة هامشية ومعزولة نذكر:

أ. أنها منطقة تستلهم وظيفتها الجيوسياسية من هشاشة وميوعة الحدود، بسبب اتساع الرقعة الجغرافية مقابل ضعف الكثافة السكانية التي لا تتجاوز شخصا أو اثنين في الكيلومتر المربع الواحد، حيث التمركز السكاني جنوبا، في حين تمثل الصحراء الكبرى معظم موريتانيا، ومالي والنيجر وتشاد (Deycard,2018, p 08).

ب. إذا كان من الخصائص الجغرافية للصحراء أنها منطقة مفرغة وجافة وموحشة، فإنها من المنظور الإستراتيجي باتت تقدم بدائل أفضل فهي:

- تحوز على جيوب مائية وهبت غطاءا نباتيا غير معهود في الصحاري وهو الواحات.
- هي شريان الحياة للقوافل والحركية التجارية تقليديا في المنطقة، وبالمنظور المعاصر لم تعد الصحراء منطقة خالية ومعزولة، أمام ذوبان الحدود وتقليص المسافات مع تطور وسائل الإتصال والمواصلات الدولية.
- لم تعد الصحراء مرادفا للمنطقة القاحلة مع الاكتشافات المهولة التي جاد بها باطن الأرض، وباتت منطقة الساحل الإفريقي غنية بالمواد الطاقوية من بترول وغاز ويورانيوم، ومن ثمة صارت مسرحا جديدا للتنافس الإستراتيجي والسياسي والإقتصادي(Taj,2003,p 07) .

ت. عرفت شعوب الساحل والصحراء ظاهرة الإستعمار شأنها شأن باقي الدوائر الإقليمية (غرب إفريقيا، شمال إفريقيا، القرن الإفريقي، ...) وقد وصلت المنافسة بين فرنسا وبريطانيا وهولندا والبرتغال إلى أشدها من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر الميلادي، فكان مؤتمر برلين (1884 – 1885م) تعبيرا عن تلك التنافسية واتجاها نحو التقييم والأقلمة في إفريقيا (علاق، 2014، 332).

كل هذه الخصائص السالفة الذكر جعلت من بلاد الساحل الإفريقي تشهد بروز تهديدات جديدة، وتفاقم لأخرى قديمة على غرار النزاعات الحدودية أو الإثنية بين دول المنطقة، ومع ارتفاع حجم التحديات والمخاطر التي يشهدها الساحل الإفريقي فقد أصبح من الضروري البحث عن أنجع السبل والوسائل لإحتواء أو التقليل من حجم هته التحديات الموجودة.

خاصة وأن الرصد الغربي للإسلام في الساحل الإفريقي حمل تناقضات كثيرة داخلية، فمن ناحية كان هناك احترام للحضارة الإسلامية بما تحمله من أدبيات وفنون ومراكز حضارية، وكان كثيرا ما ينظر إلى الممارسات الدينية الإسلامية المستندة إلى عقيدة توحيدية مشتركة على أنها أعلى شأنا من الممارسات الإفريقية "البدائية"، كذلك كان هناك تقدير للمؤسسات القانونية والسياسية الإسلامية إلى حد أن المندوب السامي البريطاني فريدريك لوغارد – على سبيل المثال – صاغ سياسته الإستعمارية الشهيرة الخاصة بـ "الحكم المباشر" لكي يستطيع أن يحكم من خلال الجهاز السياسي البيروقراطي الذي وجده في مقار

الخلافة في شمال إفريقيا، لكن من ناحية أخرى كان ينظر أيضا على اعتبار أنه تهديد، خاصة لما يتعلق بالمنافسة مع المصالح الاقتصادية الأوروبية، كذلك كان مما يقلق الغرب كون الإسلام مستمرا في كسب مؤمنين به في إفريقيا أكثر من المسيحية.

ولم تكن التحديات التي فرضها الإستعمار الغربي والمصالح الأوربية الوحيدة التي تهدد المرجعية الدينية للمنطقة، فقد أورد الشيخ سعد بن عمر جالياتوري في مقدمة كتابه (جلياأتوري، د.ت، ص3) نوع آخر من التيارات الفكرية التي شوّشت على المذهب المتبع في المنطقة، والمنهج الصوفي المتعارف عليه هناك، وهو ما دفع الشيخ إلى التأليف للرد على تلك الشبهات والحركات، حيث يورد قائلا في مقدمة إحدى مؤلّفاته: "... إنه قد ظهر في بلادنا شرذمة متشدقة –أقال عثراتنا وعثراتهم رب البرية– وقعوا في أعراض لعلماء أئمة الإسلام المتقين البررة، لأجل ما ألّفوا من الكتب في المسائل والفروع الفقهية المقررة، تبيانا لما جاء في الكتاب والسنة المطهرة، وما أجمع عليه الصحابة التابعون وتابعوهم قادة الأمة الإسلامية المتحررة، وحملوا عليهم جميع الآيات التي أنزلها الله تعالى في أهل الكتاب من النصارى والأمة اليهودية..، زاعمين بعملهم هذا أن الله يريد بأهل الكتاب أئمة الكتب الفقهية، فلذا فسّقوا وبدّعوا وكفّروا كل من يشتغل في تعلّم أو تعليم تلك الكتب الدينية، وفي بعض المدن طرحوها في الطرقات والشوارع والحفر، وأضرموا في البعض النيران المتأججة، معلنين بأنها تخالف الملّة المحمدية وتشبه الأصنام المضلّلة، حتى نرى اليوم بعض الطلبة لأجل أقاويلهم السخيفة ينفرون ويهجرون الكتب التي منها تعلموا هم والشرذمة المتشدقة، الصلاة والصيام والزكاة والحج وسائر فروض الأعيان والمعاملات، مثل الأخضري والمقدمة العزّية والرسالة القيروانية وغيرها من الكتب الفقهية، وأساؤوا الظن بمؤلفيها وفندوا جامعيها...، فعزمنا بعد تردد أن نجمع شرحا وجيزا لمختصر الأخضري للشيخ عبد الرحمان الأخضري، بعدد قليل من دلائل وفروع ومسائل، نقلا عما قاله وكتبه في مثلها العلماء الأوفياء، وما قرره في نظائرها المحدثون والفقهاء الأمناء،... عسى الله أن يرجع به الإطمئنان إلى نفوس المتعلمين البواسل، ويبعث به السكينة والثبات إلى قلوب المعلمين الأفاضل، ويذود به المؤذين الواقعين في أعراض الفقهاء الأبرياء الكمَلة، ويسكت به شِقشِقَة المتقحمين الجهلة، إراحةً لقلوب المخلصين الخيَرة"(جلياأتوري، د.ت، ص4).

وما أشرنا إليه من زود الشيخ سعد بن عمر جالياتوري عن المرجعية الدينية بالمنطقة ما هو إلا نموذج لعديد من العلماء المتقدمين الذين اهتموا بالتأليف في كل ما يقوي تشبث الناس بمقومات تلك المرجعية، ومن أبرز من عملوا في هذا المضمار نذكر الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي ألف كتاب في العقيدة أسماه "مصباح الأرواح في أصول الفلاح" (الحمدي، 2012، ص68)، أما أحمد بابا التنبكتي الذي وصف كتاب المغيلي بأنه كتاب عجيب (التنبكتي، 1989، 577)، فقد شرح مختصر خليل في الفقه المالكي، كما ألف محمد الغلاوي كتابا في العقيدة والتوحيد (طوير الجنة، 1995، 47)،

ومحمد بن أبي بكر الولاتي الذي ألف منظومة في العقيدة وأصول الدين (الحمدي، 2009، ص53)، كما حرص عبد الرحمان السعدي على الإحتفاء بتاريخ المنطقة ومرجعيتها فألف كتابه المشهور "تاريخ السودان".

ولم يقتصر الجهد في الحفاظ على المرجعية الدينية بمنطقة الساحل على العلماء الرجال فقط، فقد تحمل معهم عبأ هذه المسؤولية الجليلة عالمات مسلمات كرّسن حياتهن وجهودهن للحفاظ على مرجعية البلاد وهويتها الإسلامية، نذكر منهن المؤرخة الشاعرة نانا أسماءُو (1793–1864م) ابنة عثمان دان فوديو مؤسس خلافة سوكوتو في شمال نيجيريا، التي إضافة إلى دورها في التأليف والتدريس قامت بتأسيس حركة "يان تارو" (الأختية) التي استمرت إلى ما بعد وفاتها، والتي تكونت من نساء تدربن على نشر التعاليم الإسلامية بين النساء الريفيات من خلال الحفظ الشفهي للنصوص الإسلامية، وفي مناطق أخرى من غرب إفريقيا كانت من بين الزعيمات الروحيات نساء مثل الشيخة خديجة وهي مدرّسة موريتانية من القرن التاسع عشر، وفي نيجيريا كان هناك عدد منى النساء "المقدمات" (المعلمات الصوفيات) اللاتي اشتهرن خلال العقود الأولى من القرن العشرين، منهن عائشة وصفية عمر فلكه وحجية إيا، وأمة ماكارانتا، كلهن نساء متعلمات كتبن لتعزيز عقيدتهن الإسلامية في مجتمعاتهن(Beverly, 2000, p 89).

خاتمة:

لقد اجتمعت لبلاد الساحل في فترات من تاريخها مؤهلات جعلت بلدانها في مصاف الدول التي تتمتع بمرجعية دينية واضحة الأصول والمعالم، ولها من يقوم برعايتها والذود عنها، حيث اشتهرت بحواضر قرآنية ضمت علماء وأمراء من الرجال والنساء جعلوا اهتمامهم هو رعاية تلك المرجعية الدينية بالتعليم والإرشاد ومواجهة كل ما يخالف طبيعة العقيدة والمذهب والتصوف السائدين بالمنطقة، لكن اضمحلال تلك المؤهلات جعل بلاد الساحل تعيش تحديات متعددة، فالحواضر القرآنية التي ازدهرت بفضل التجار والعلماء تراجع إشعاعها الفكري نتيجة محاربة الإستعمار لها، وتغيّر طرق التجارة الدولية، وبذلك نشطت في المنطقة جماعات تبنت أفكارا تخالف تلك التي عملت الحواضر القرآنية على ترسيخها، لذا كان من المهم بعْث تلك الحواضر القرآنية، وتفعيل ما هو باقٍ منها، وكتابة تاريخها للإستفادة منه ومن الأدوار التي أدّتها سابقا في ترسيخ مرجعيةٍ دينية واحدة ذات ثوابت محددة.

قائمة المراجع:

– ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي. (1997). تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. الرباط: أكاديمية المملكة المغربية.

- بازينة، عبد الله سالم.(2010).انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء. (ط.1). بنغازي: دار الكتب الوطنية.
- برايما باري، عثمان.(2000) جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي. (ط.1). مصر: دار الأمين للطباعة والنشر.
- بللو، محمد.(1996).إنفاق الميسور في أخبار بلاد التكرور. الرياض: مطبعة المعارف الجديدة.
- بن طوير الجنة، أحمد.(1995). تاريخ ابن طوير الجنة. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.
- التنبكتي، أحمد بابا.(1989). نيل الإبتهاج بتطريز الديباج. (ط.1). ليبيا: كلية الدعوة.
- جعفري، امبارك.(2009).العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12هـ. الجزائر: دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر.
- الحمدي، أحمد.(2009).المختار الكبير الكنتي.(ط.1).الجزائر: دار السبيل، الجزائر.
- الحمدي، أحمد.(2012).الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي الإطار المعرفي والتعامل مع المكانية، (ط.1).الجزائر: دار الرشاد.
- السعدي، عبد الرحمن.(1981). تاريخ السودان. باريس: مطبعة هوداس.
- عبد اللطيف، علي محمد.(2001). تمبكتو أسطورة التاريخ. (ط1). ليبيا: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.
- علاق، جميلة.(2014). استراتيجيات التنافس الدولي في منطقة الساحل والصحراء. مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 19.
- الفوتي جلياأتوري، سعد بن عمر بن سعيد.(د.ت).حل المسائل في شرح مختصر الأخضري بالدلائل. د.م
- الماحي،عبد الرحمان عمر.(1999).الدعوة الإسلامية في إفريقيا في الواقع والمستقبل. الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة.
- المسعودي، علي بن الحسين.(1988). مروج الذهب ومعادن الجوهر. لبنان: المكتبة العصرية.
- مهدي رزق الله، أحمد.(1998). حركة التجارة والإسلام والتعليم في غربي إفريقيا. المملكة العربية السعودية: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلام